



إِبْنُ الْقَيْمِ

وحسه البلاغى فى تفسير القرآن الكريم

دكتور عبدالفتاح لاشين

التعريف بابن القيم :

هو محمد بن أبى بكر بن أيوب الدمشقى، وبكى بأبى عبد الله، ويلقب بشمس الدين، ويشتهر بابن القيم، أو بابن قيم الجوزية، والجوزية: اسم مدرسة بدمشق كان أبوه قيما عليها. (١)
 ولد فى عام ٦٩١هـ الموافق عام ١٢٩٢م، وتوفى بدمشق سنة ٧٥١هـ، فزهرة شبابه كانت فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى. وقضى معظم حياته بالشام، وجاور بمكة فترة من الزمن، وانتحل الى القاهرة فى بعض الأحيان. (٢) وكانت الشام فى حياة ابن القيم فى عصر سلاطين المماليك (٦٥٦ - ٩٢٣هـ) تابعة لمصر، ويحكمها نائب من قبل السلطان بالقاهرة، وامتد ذلك ثلاثة قرون.

وقد تتلمذ ابن القيم على كثير من علماء الشام، ومن الشيوخ الذين اتخدهم مثلاً أعلى له، وترك أثراً في نفسه ابن تيمية، فقد لزمه منذ سنة ٧١٢هـ إلى سنة ٧٢٨هـ، وأخذ عنه الكثير من آرائه، ونهج نهجه في محاربة المنحرفين عن عقيدة السلف.

وقد ازدهرت الحياة العلمية في عصر المماليك، إذ عرفوا أن العلم عماد الدولة، لذلك شجعوا التعليم، وقربوا العلماء، وأجزلوا لهم العطايا والسنح، وأكثروا من المساجد والزوايا التي اتخذها العلماء مقراً لطلاب العلم، وقصاد المعرفة، وأشهر هذه الأماكن، الجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون، وجامع الحاكم، (٣) كما اتخذوا المدارس لهذا الغرض، وفعلوا مثل ذلك في الشام.

الإنسان ابن يتيته :

والإنسان ابن يتيته، ونتاج مجتمعه، وهو مجموعة من المواهب الطبيعية، والصفات المكتسبة من البيئة العامة والخاصة، فهي تصبغ الفرد بصبغة خاصة، وتلون أهدافه واتجاهاته بلون يناسب الظروف التي ينحيا فيها، وتحيط به.

فليس غريباً أن نرى رجلاً مثل ابن القيم ينشأ في هذا الحقل، ويتغذى بهذه الثقافة، فيبضمها، ويتمثلها، يخرجها للناس في آثار خالدة تنبئ عن عقل رشيد، وفهم سديد، فقد تبحر في دراسة العلوم الشرعية، والعربية، وعلم الكلام، والتصوف. (٤)

وكان ابن القيم باحثاً قوى الشخصية، لا يتأثر بغيره، بل كان حراً، يعمل فكه، ولا يلتزم برأى غيره، ولو كان شيخه ابن تيمية، فكثيراً ما كان يناقشه، ويرد رأيه عندما كان يبدو له وجهه للترجيح. (٥)

وقد تعرض لمثل ما تعرض له شيخه ابن تيمية من العذاب والتنكيل، وفي مسائل قد تكون متشابهة، إذ مصدرها حرية الرأي، والبحث الحر، إلا أن ابن تيمية تعرض لأكثر مما تعرض له ابن القيم من البطش والتنكيل، لأن ابن تيمية كان حاد الطبع، عنيف الثورة على أصحاب البدع والمخالفين للسنة، وكان لا يقبل أن يرجع عما يرى أنه الحق.

وحينما جاء ابن القيم كان النزاع قد خف، وقررت حدته، فأخذ يتناول المخالفين بالحجة

والبرهان في هدوء واتزان، وبناقش الآراء، وبأخذ منها ما يراه موافقا للشرع، ويرد منها ما كان يخالفه، مع ميل إلى الهدوء، وبعد عن العنت.

وعلى الرغم من ذلك فقد ناله الأذى، فاعتقل مع شيخه بقلعة دمشق بعد أن أهرين، وطيف به على جمل مضروب بالدمرة. (٦)

فهذه المواقف تدل على ما تميز به ابن القيم من ثبات على الرأي، كما ينسب عن شخصية قوية لا تميل عن اعتقادها مهما أصابها من بطش وتعذيب.

ومات رحمه الله سنة ٧٥١هـ، وقد ذكر أن جنازته كانت «حافلة جدا»، وهذا الاحتفال بالجنازة يدل على سلامة اعتقاد العامة، وقد أثر عن ابن حنبل أنه قال لخصومه: «بيننا وبينكم اتباع الجنازة» (٧) فكانت هذه الجنازة غير العادية دليلا على إخلاصهم لأمتهم، ونصحهم لها.

ابن القيم وتفسير القرآن

لم يؤلف ابن القيم مؤلفا خاصا بتفسير القرآن الكريم، ومع ذلك فقد كانت له اليد الطولى في البحث فيه، فقد تناول كثيرا من آياته في ثنايا كتبه العديدة التي بلغت أكثر من تسعين كتابا، (٨) وقد تبنى في حياته أن يفسر القرآن الكريم ويخصه بمؤلف فقال في أحد مؤلفاته: (٩) «وعسى الله أمان بفضل الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت في مواضع متفرقة من القرآن على ما ينسج من هذا النمط وقت مقامى بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته»، ولكن لم يحصل ما تمناه، ولم يقع ما رجاه.

وظلت مؤلفات ابن القيم المطبوعة واخطوطة على ما تركها، وكانت كتبه على تفرقتها ونشتها هي المرجع الوحيد لما تعرض له من تفسير للقرآن الكريم، حتى وفق الله الشيخ أوبس الندوى، فجمع ما وقف عليه من تفسير للقرآن من مؤلفاته في مجلد واحد، وظهر هذا الكتاب باسم «التفسير القيم» (١٠)

ومع الجهود التي بذلها جامع هذا التفسير فقد نلت عنه بعض الشوارد، وظلت مطوية في بطون الكتب، وقد نبه إلى ذلك الأستاذ محمد بهجت البيطار الدمشقي في مقال

نشرته له مجلة الجمع العرفي بدمشق، فأثنى على هذا الجمع، وقال: «إنه عمل مشكور، لكنه لم يستوف، ولم يقارب، فقد فاتته مواضع، وعنى لو حصل التسع الدقيق والتقصي الأنيق لمباحث ابن القيم في ذلك».

ومن خلال تتبعي لأثار ابن القيم المتفرقة، وما جمع من تفسيره في هذا السفر القيم تبين أن ابن القيم كان يتمتع بحس بلاغي في فهم آيات الكتاب المبين، وقدرة عظيمة على استخراج اللطائف البيانية، والأسرار البلاغية، وتوجيه الآيات توجيهاً يظهر فيه البراعة، وحسن الابتكار، مما يحمل القارئ أو السامع على تقديره والاعتزاز به، فقد بلغ الغاية في دقة الفهم، والفق في النص، واستنتاج كثير من اللطائف البلاغية والأسرار البيانية التي لم نسمعها من غيره، فكان هو الجليل ومن بعده هو المصلي.

وابن القيم حين تعرض لتفسير بعض الآيات الكريمة في مؤلفاته، لم يقصد تفسير القرآن آية آية - كما هو معروف - عند غيره، وإنما كان يتعرض للآية الكريمة لبيان حكم شرعي، أو رد على فرقة من الفرق التي انحرفت عن منهج القرآن الكريم، فيظهر عند ذلك حسه البلاغي، وتبرز قدرته على استخراج النكت والأسرار.

وقد تناول في تفسيره هذا ما يخص «حروف القرآن» - حروف المعجم، وحروف المعاني - وكيفية تركيبها، وحسن اختيارها، وملاءمتها لمواضعها.

كما تناول «الكلمة» وانتقاءها، وحسن اختيارها، وتفضيلها عن سواها، وتناسقها مع غيرها.

كذلك تناول «نظم الجملة» وبناءها، وجمال الشامها، وتناسقها مع سياقها من الجمل.

وسنخص هذا البحث - إن شاء الله تعالى - بحروف القرآن الكريم، لئرى جهوده في الدرس البلاغي، ومدى ماوصلت إليه قدرته على استخراج ما في حروف القرآن من أسرار بلاغية، ولطائف بيانية، تسترعى الانتباه، وتثير الإعجاب.

حسه البلاغي في تفسير القرآن

الحروف في القرآن «حروف المعجم، حروف المعاني»

القرآن الكريم يتخير حروف الكلمة، وينتقى أصواتها، صافية الذوق في مخارجها، لذينة السماع، طيبة الجرى على اللسان، معتدلة في تأليفها، خفيفة في القم، نازلة على أحسن

هيئة في الإيقاع، قوة الإيماء، شديدة البحث لما تتضمنه من المعاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآلة الكريمة.

لذلك نرى في تراكيب حروف القرآن تناسقا عجيبا بين الرخو منها والشديد، والمجهور والمهموس، والممدود والمقطوع، ونجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغما مطربا، يظهر أثره في صوت القارئ.

وهذا ما يدركه كل باحث في القرآن الكريم، وكان لابن القيم في فهمه لحروف القرآن والبحث عن خصائصها نظرات صائبة، وأفكار طيبة، بدت في تحليله لبعض آيات القرآن وظهرت متفرقة في كتبه، نذكرها فيما يلي:

الحروف المقطعة :

وردت هذه الحروف في أوائل سور كثيرة من القرآن الكريم، فاستفتح بها تسع وعشرين منها، نحو : أم، ألمص، أُر، ص... الخ، وقد اختلف العلماء في أسرار هذه الحروف، والسبب في بدء السورة بها اختلافا كبيرا (١٣)، يعكس العجز من البشر، وهو سر من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، لكن العلماء - على الرغم من اعترافهم بعجزهم عن الوصول إلى السر الحقيقي - لا يكفون عن البحث عن هذا السر الدفين، والكشف عن ذلك الخبأ الثمين.

ومن شارك العلماء في جهودهم للبحث عن سر هذه الحروف المقطعة، وتعقب أقوال سابقه، ابن القيم، فقد قال: (١٤) «الصحیح أن [ن، ق، ص] من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية، وثلاثية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تتجاوز الخمسة، ولم يذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخفيا عنه، ما خلا سورتين [كهيصص، ن]، كقوله تعالى «أم، ذلك الكتاب» البقرة ١، «أم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق» آل عمران ١، «ألمص، كتاب أنزل إليك..» الأعراف ١، «أم، تلك آيات الكتاب..» الرعد ١، وهكذا.

ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها، إذ هي مباني كلامه، وكتبه، التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بوساطتها

نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونبيه، ووعدته، ووعدته... وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق، وأقل كلفة ومشقة.

فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكآل إحسانه وإنعامه، فهي أول أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات.

وقد جمع الله - سبحانه - بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، فقال تعالى: «الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» «الرحمن 1-4»، فهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت...

ثم ينتقل ابن القيم من الكشف عن الأسرار في تلك الحروف إلى تعريف العباد بعظمة الله تعالى وإظهار آياته وقدراته في كيفية إنطاق الإنسان بوساطة هواء يخرج من قسبة الرئة، وإلى الفم من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجاز قد أعدت وهبت لتقطيعه وتفصيله، ويسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف، فتبارك الله أحسن الخالقين، يقول في ذلك: (10)، «فآياته - سبحانه - في تعلم البيان كآياته في خلق الإنسان، فسبحان من هذا صنعه! في هواء يخرج من قسبة الرئة، فينضم إلى الخلقوم، وينفث في أقصى الخلق، ووسطه، وآخره، وأعله، وأسفله، وعلى وسط اللسان، وأطرافه، وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف فأظم الله - سبحانه - الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قائمة بنفسها، ثم أظمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني: أمراء ونبياء وخبراء، واستخباراء، ونفيا، وإثباتا، وإقرارا، وإنكارا، وتصديقا، وتكديبا، وسؤالا، وجوابا... إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثوه، ووجيزه ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعه تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره في مجاز قد هبت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين.

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور، كما افتتحت بها الأقسام.

الحروف تحذو حذو المعاني :

ثم يتناول ابن القيم بعض هذه الحروف المفردة التي بدئت بها بعض السور، وينعم النظر فيها، وفي بقية السورة منها، ويخرج بعد الدراسة والبحث بفكرة جيدة تدور حول التناسب بين بدء السورة بالحرف والألفاظ التي تشتمل عليها السورة، وماتدل عليه الألفاظ تلك من شدة وجهر، وقلقلة وانفتاح، مما يبرز معنى قد يخفى على بعض العلماء، وهو أن حروف الألفاظ تحذو حذو المعاني، يقول في توضيح ذلك: (١٦) «تأمل السورة التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف نجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك [ق]، والسورة مبنية على الكلمات القافية من: ذكر القرآن، (١٧) وذكر الخلق، (١٨) وتكثير القول ومراجعته مرارا، (١٩) والقرب من ابن آدم، (٢٠) وتلقى الملكين قول العبد، (٢١) وذكر الرقيب، (٢٢) وذكر السائق، (٢٣) والقربين، (٢٤) والإلقاء في جهنم، (٢٥) والتقديم بالوعيد، (٢٦) وذكر المتقين، وذكر القلب، (٢٧) والقرون، والتنقيب في البلاد، (٢٨) وتشقق الأرض، (٢٩) وإلقاء الرؤاس فيها، (٣٠) وسوق النحل، والرزق، (٣١) وذكر القوم، (٣٢) وحقوق الوعيد، (٣٣)»

ولم يكتف ابن القيم بما بين هذا الحرف المفرد الذي بدئت به الآية، وبين بقية السورة من مناسبة لفظية ظاهرة، بل أضاف إلى ذلك المناسبة المعنوية بين هذا الحرف المفرد [ق] الذي يدل بوضعه على الشدة والجهر، وبين معاني هذه السورة التي ملكت بالحروف القافية، وحرف القاف من الحروف الشديدة الجهرية، فتناسب ذلك مع الغرض من السورة، حيث إن نزوها كان في مهاجمة المشركين، وتقرير الوعيد لهم، وإثبات الحساب والموت والبعث وما يخف ذلك من مكروه يفرون منه ويهربون، فقال: (٣٤) «وشيء آخر، وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حروف القاف من الشدة والجهر والعلو والإنتفاع».

ويضيف إلى سورة [ق] سورة أخرى، وهي [ص]، وبين المناسبة بين بدء السورة بالحرف المفرد [ص]، وبين ما اشتملت عليه السورة من معاني العداوة والحصومة، فقال: «فتأمل ما اشتملت عليه سورة [ص] من الحصومات المتعددة:

فلأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» إلى آخر كلامهم.

ثم اختصام الخصمين عند داوود (٣٧).

ثم تخاصم أهل النار (٣٨).

ثم مخاصمة إبليس، واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم (٣٩).

ثم خصامه ثانيا في شأن بنيه، وحلفه ليغويهم أجمعين [لا أهل الإخلاص منهم (٤٠)].

ثم يختم حديثه بقوله :

«فلينأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير [ص]، وسورة [ق] غير حرفها، وهذه فطرة من بحر من بعض أسرار هذا الحرف».

فرى تخليق ابن القيم في هذه الآفاق العالية، واختياره تلك اللطائف السامية، وحسه البلاغي الرقيق في توجيه هذا الحرف، فذلك لا يخطر إلا على قلب عقول، ولسان رطب يذكر ربه، دائم التفكير في ملكوته.

وهذه الحروف المقطعة لا ينتهي القول فيها عند حد، ولا يتوقف عند رأى، فلكل عالم رأى، ولكل وجهه. وسيظل الكلام فيها يتجدد جيلا فجيلا، حتى يظل القرآن متجددا، وإعجازه مستمرا، وفي هذا الاختلاف ، وتجديد الرأى من حين لآخر علامة على أعجاز القرآن الكريم، وآية على أن العقل الإنسانى ما يزال في حيرة من أمره، وقاصرا عن إدراك حقائق الإعجاز فيه.

ونرى ابن القيم في عقده الصلة بين بدء السورة بالحرف المنفرد [ق] - مثلا - وهو حرف شديد مجهور، وبين ما جاء في بقية السورة من معاني الوعيد الشديد، والعذاب الأليم، والحساب الدقيق، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، قد انتفع كثيرا بما كان يراه ابن جنى، فقد كان يرى أن نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤدبه من معنى ارتباطا وثيقا «فإنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها» (٤١).

فحرف الحاء - مثلا - في قوله تعالى في وصف الجنة: «فيهما عينان نضاختان» «الرحمن ٦٦»، يصور بغلظه، وصوت جرسه، قوة الماء وكثرتة، إذ النضخ [بالحاء] أقوى

من النضح [بالحاء]، فقد جعلوا الحاء [لرقبها] للماء الضعيف، والحاء [لغلظها] لما هو أقوى حذو المسموع من الأصوات على محسوس الأحداث.

فإن القيم قد أجاد الأخذ، وأحسن في الاستدلال.

زيادة حرف [الميم] في [اللهم] :

يقول تعالى: «قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وترع من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير» «آل عمران ٢٦».

يقول ابن القيم: (١٢)، [اللهم] لاختلاف أن لفظ [اللهم] معناها: [يا الله]، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني.

واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم :

فقال سيويه: زهدت عوضا من حرف التداء، ولذلك لا يجوز الجمع بينهما في الاختيار الكلام، فلا يقال: يا اللهم، إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إني إذا ما حدثت أماً أقول: يا اللهم، يا اللهم

ويسمى ما كان من هذا القرب عوضا، إذ هو في غير محل المخدوف، فإن كان في محله سمى بدلا، كالألف في [قام، باع] فإنها بدل من الواو والياء.

ولا يجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضا، فلا يقال: يا اللهم الرحيم الرحمن، ولا يبدل

ولكن ما لسر في زيادة حرف الميم في [اللهم]، ولماذا كانت الميم هي المنزدة، دون غيرها من الحروف المجالية؟.

لم يفتح ابن القيم بما قاله النحويون، ولم يتوقف عند كلام سيويه عن حرف الميم، بل بحث عن سره، وسبب وجوده، فقال: (١٣) «قيل: زهدت الميم للتعظيم والتفخيم، كترادفها في [زررقم] لشدة الزرقمة، و«ابنم» في «ابن».

استطرد قبل الإجابة عن السؤال :

وبصحح ابن القيم هذا القول، وبضيف إليه تنمة، فينقل عن أساطين العربية المناسبة بين اللفظ والمعنى، بل الصلة التي تربط بين الحركة ومعنى اللفظ، ويخص منهم ابن جنى، وينقل عنه قوله:

«ولقد مكثت برهة يرد على اللفظ لا أعلم موضوعه فأجد معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكتشفه فأجده كما فهمته أو قرأها منه».

ثم يحكى ذلك لشيوخه ابن تيمية، فيجد أن ذلك من طبع ابن تيمية أيضا.

ثم يذكر فصلا عظيم النفع لابن تيمية، في التاسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ، ويقدم الكلام على مناسبة الحركات لمعنى اللفظ، ويمثل لها بعدة أمثلة فيقول:

«إنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقرى.
والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف.

والمتوسطة [يعنى الحركة التي بين القوى والخفيف-وهى الكسرة] للمتوسط.
فيقولون : عز يعز - يفتح العين - إذا صلب.

ويقولون : عز يعز - بكسر العين - إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلبا ولا يمتنع على كاسره.

ثم يقولون : عزه يعز - بضم العين من باب رد-(١٥)، إذا غلبه، قال تعالى في قصة داوود -عليه السلام- «وعزى في الخطاب» (ص ٢٣)، والغلبة أقوى من الامتناع، إذ قد يكون الشيء ممتنعا في نفسه، متحصنا عن عدوه، ولا يغلب غيره، فالغالب أقوى من الممتنع.

فأعطوا الغالب أقوى الحركات - وهو الضمة - والصلب أضعف من الممتنع، فأعطوه أضعف الحركات - وهو الفتحة - والممتنع المتوسط بين المرتبتين حركة الوسط

و [ذبح] - يفتح أوله - للفعل نفسه، ولأنه أن الجسم أقوى من العرض فأعطوا

الحركة القوية للقوى، والضعيفه للضعيف.
وهو مثل قولهم: [هَبْ، وهَبْ] - بالكسر للمنيوب، وبالفتح للفعال.

وكقولهم [مَأْع، ومَأْع] - بالكسر - لما يميل الشيء، وبالفتح للمصدر الذي هو الفعل.
وكقولهم [حَمَل، حَمَل] فبالكسر - لما كان قويا مثقلا لحامله على ظهره أو رأسه، أو غيرهما
من أعضائه، والحمل - بالفتح - لما كان خفيفا غير مثقل، كحمل الحيوان، وحمل
الشجرة به أشبه، ففتحوه.

وتأمل هذا في [الحب والحَبْ] فجعلوا المكسور الأول للمحبوب نفسه، ومضمومه
للمصدر، إبهانا بخفة المحبوب على قلوبهم، ولطف موقعه من أنفسهم، وحلاوته عندهم،
ونقل حمل الحب وزومه.. ولهذا كثر وصفهم تحمله بالشدة والصعوبة، وإخبارهم بأن
أعظم الخلوقات وأشدها من الصخر والحديد - ونحوهما - لو حملة لذاب من حملة، ولم
يستقل به، كما هو كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين، وكلامهم.

فكان الأحسن أن يعطوا المصدر هنا الحركة القوية، والمحبوب الحركة التي هي أخف
منها.

ثم يتنى بالناسب بين اللفظ والمعنى، ويمثل له بعدة كلمات، فيقول: (٤٦)

«وتأمل قولهم [دار دوراناً] و [فارت القدر فوراناً]، و [غلت غلياناً]، كيف تابعوا بين
الحركات في هذه المصادر لتتابع حركات المسمى، فطابق اللفظ المعنى.

وتأمل قولهم: [حجر، وهواء]، كيف وضعوا للمعنى الثقيل الشديد هذه الحروف
الشديدة، ووضعوا للمعنى الخفيف - الهواء - أخف الحروف.

وانظر الى تسميتهم الطويل ب[العشْشُق]، وتأمل اقتضاء هذه الحروف، ومناسبتها لمعنى
الطويل، وتسميتهم القصير ب [البحْثُر]، وموالاتهم بين ثلاث فتحات في اسم الطويل
- وهو العشْشُق - وإتيانهم بضميتين بينهما سكون، كيف يقتضى اللفظ الأول: انفتاح
القم، وانفراج آلات النطق، وامتدادها، وعدم ركوب بعضها بعضاً، وفي اسم [البحْثُر]
الأمر بالضد.

وتأمل قولهم: طال الشيء فهو طويل، وكبر فهو كبير، فإن زاد طوله وكبره، قالوا: طولا وكبارا، فأتوا بالألف التي هي أكثر منا وأطول من الياء، فإذا زاد كبر الشيء، ونقل موقعه من النفوس، نقلوا اسمه، فقالوا: كَبُرَ بتشديد الباء.

الإجابة عن السؤال :

ثم ينتقل من هذا الاستطراد الذي أثبت فيه أن الحروف والألفاظ تحذو حذو المعاني، ليصل إلى الإجابة عن السؤال - لماذا زهدت الميم في [اللهم]، ولماذا كان الحرف المهذب حرف الميم دون غيره، فيقول: (١٧).

«الميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفثيه، فوضعت العرب علما على الخ مع، فقالوا للواحد: أنت، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: أنتم، وقالوا للواحد الغائب: هو، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: هم.

وكذلك في المتصل، يقولون: ضربت، وضربتم، وإياك وإياكم، وإياه وإياهم، ونظائره نحو: به، وبهم.

ويقولون للشيء الأزرق: أزرق، فإذا اشتدت زرقة واجتمعت واستحكمت، قالوا: زرقم، ويقولون لكبير الإشت: ستهم - بوزن قنفذ -.

ثم يزيد في بيان هذا المعنى، فيقول :

«وتأمل الألفاظ التي فيها الميم، كيف تجدد الجمع معقودا بها، مثل: لم الشيء يلمه - إذا جمعه - ومنه: لم الله شفته، أي جمع ما تفرق من أموره، ومنه قولهم: دار لومة، أي تلم الناس وتجمعهم، ومنه الأكل اللهم، جاء في تفسيرها: يأكل نصيبه ونصيب صاحبه، وأصله من اللم، وهو الجمع.

ومنه: ألم بالشيء، إذا قارب الاجتماع به والوصول إليه، ومنه: اللمم، وهو مقاربة الاجتماع بالكبار، ومنه: الملمة، وهي النازلة التي نصيب العيد، ومنه: اللمة، وهي الشعر الذي قد اجتمع وتخلص حتى جاوز شحمه الأذن.

ومنه : بئر التيم، إذا كمل واجتمع نوره، ومنه : التوام، للولدين المجتمعين في بطن،
ومنه : الإمام، الذي يجمع المقتدون به على اتباعه.

ومنه : رم الشيء برمه، إذا أصلحه، وجمع متفرقه، قيل : ومنه سمي الزمان، لاجتماع حبه
وتضامه...

وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد أحقوها في آخر هذا الاسم [اللهم] الذي يسأل
العبد به ربه سبحانه في كل حاجة، وكل حال، إلهانا بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال
السائل : اللهم إني أسألك، كأنه قال : ادعوا الله الذي له الأسماء الحسنى، والصفات
العلی، فأنى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم، إلهانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، كما
قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح :

«ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن، فقال : ماللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك،
ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به
نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن
العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمسي، إلا أذهب الله همه
وغمه، وأبدله مكانه فرحاً.

قالوا : يا رسول الله، أفلا تتعلمهن؟ قال : بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

الحرف المكرر :

تعرض ابن القيم في أسرار التعبير بالحرف المكرر عند تفسير قوله تعالى : «قل أعوذ برب
الناس، ملك الناس، اله الناس، من شر الوسواس الخناس»، فقال : (٤٨) «الوسواس :
فعال من وسوس، وأصل الوسوسة : الحركة أو الصوت الخفى الذى لا يسمعه، فيحترز
منه.

فالوسواس : إلقاء الخفى في النفس، إما بصوت لا يسمعه إلا من ألقى إليه، وإما بغير
صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هنا : وسوسة الخلق، وهو حركته الخفية في الأذن.

ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس، ويؤكد عند من يلقيه إليه، كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

جاءه تبايناً [إذ]

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء.

لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة، والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء: إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبا بعد كب، كقوله تعالى: «فليكبوا فيها هم والغاوون» الشعراء ٩٤.

ومثله: رضره، إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله: ذرذره، إذا ذره شيئاً بعد شيء، ومثله: صرصر الباب، إذا تكرر صريره، ومثله: مطمط الكلام، إذا مطقه شيئاً بعد شيء، ومثله: كفكف الشيء، إذا كرر كفه.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوت، فإن تابع صوته، قالوا: عجمع، وكذلك، نج الماء، إذا صب، فإن تكرر ذلك، قيل: نجنج.

والمقصود: أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها، قيل وسوس.

ثم رجح أن يكون مثل هذا الفعل [وسوس] من الرباعي لا من الثلاثي المضعف، فقال: «وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يهدل على تكرار، بخلاف الرباعي المكرر».

وكلام ابن القيم هذا، هو كلام ابن جنى، تمشياً مع ما بات واضحاً من أن نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤده من معنى فقد جعل العرب تكرير عين الفعل دليلاً على تكرير الفعل.

حروف المعانى :

[إن ، وإذا] الشرطيتين :

تنفق [أن] الشرطية مع [إذا] في أن كلا منهما يطلب شرطاً وجزءاً، لكن [إن] تفترق

عن [إذا] في أن يخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به الخبر، ولا تدخل في التركيب إلا على أمر مشكوك فيه، تقول: «إن جئتني أكرمك» فإخيه ليس مقطوعا به، ولذلك صح دخول [إن] الشرطية عليه.

يقول ابن القيم: (٤٩) «المشهور عند النحاة والأصوليين والفقهاء، أن أداة [إن] لا يعلق عليها ألا محتمل الوجود والعدم، كقولك: «إن تأتني أكرمك»، ولا يعلق عليها محقق الوجود، فلا تقول: «إن طلعت الشمس أتيتك».

ثم قال بخصوص استعمال [إذا]: «وإذا يعلق عليها النوعان» فإذا كان المراد من النوعين -المحتمل الوقوع، والمحقق الوقوع- فهذا مالم يقل به أحد من العلماء.

يقول سيبويه (٥٠): «لو قلت: أتيتك إذا احمر البسر، كان حسنا، ولو قلت: أتيتك إن احمر البسر، كان قبيحا».

ويقول صاحب المقتضب (٥١): «كان محلا لأنه واقع لامحالة».

وعلى هذا فقد فات ابن القيم التحقيق في استعمال [إذا].
ثم يمثل ابن القيم لاستعمال [إذا، وإن] فيقول:

«وإذا عرفت هذا فتدبر قوله تعالى: «وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها، وإن نصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم، فإن الإنسان كفور» الشورى ٤٨».

كيف أتى في تعليق الرحمة الضميمة لإصابتها من الله تعالى ب [إذا]، وأتى في إصابة السببة ب [إن]، فإن ما عفو الله عنه أكثر.

وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السببة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولا بد.

وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإضافة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مدبوقة لهم، والدوق أحص أنواع الملاسة وأشدها.

وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه، فقال: (منا رحمة)، وأتى في السببية بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم.

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف [إن]، دون الجملة الثانية، وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن تحيط بها عقول البشر.

ثم يستمر ابن القيم في الاستشهاد بآيات القرآن، فيقول: «وتأمل قوله تعالى: «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه» (الأسراء: ٦٧) كيف أتى بـ [إذا] ههنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققا، بخلاف قوله «الأسام الإنسان من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيئوس قنوط» (٥٢)، «فصلت ٤٩» فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، ولما قیده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك، أتى بأداة [إذا].»

وتأمل قوله تعالى: «وإذا أتعنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوسا» (الأسراء: ٨٣)، كيف أتى هنا بـ [إذا] المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بـ [إذا] ههنا أول على المعنى المقصود من [إن].»

بخلاف قوله: «وإن مسه الشر فيئوس قنوط» فإنه بقله صريح، وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يئوسا.

ولما كانت هذه القاعدة يشذ عنها بعض آيات القرآن الكريم، فقد جمع تلك الآيات الكريمة وعلل خروجها عن القاعدة بتعليل مقبول، وتوجيه طريف، يدل على حسه اللغوي، وذوقه البلاغي فيقول:

«فإن قلت فما تصنع بقوله تعالى: «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك» (النساء: ١٧٦)، وإهلاك محقق؟»

قلت: التعليل ليس على مطلق الهلاك، بل على هلاك مخصوص، وهو هلاك لا عن ولد.

فإن قلت: فما تصنع بقوله «بأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا لله

إن كنتم إياه تعبدون» البقرة ١٧٢، وقوله: «فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين» الأنعام ١١٨.

وفي الحديث: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، واللاحق محقق.

وقول الموصي: إن مت فثلث مال صدقة.

قلت: أما قوله «إن كنتم إياه تعبدون» الذي حسن محي، إن ههنا الاحتجاج والالزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جهنتها فكلوا من رزقه، واشكروه على نعمه، وهذا كثير مما يورد في الحجاج.

وكذلك «إن كنتم بآياته مؤمنين».

وأما قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» فالتعليق هنا ليس لمطلق الموت، وإنما هو للحاقهم بالمؤمنين، ومصيرهم إلى حيث صاروا.

وأما قول الموصي: إن مت فثلث مال صدقة، فلائن الموت، وإن كان محققا، لكن لما لم يعرف تعين وقته وطال الأمد، وانفجرت (٥٣)، مسافة أمنية الحياة، نزل منزلة المشكوك، كما هو الواقع الذي يدل عليه أحوال العباد، فإن عاقلا لا يتيقن الموت، ويرضى بإقامته على حال لا يحب الموت عليها أبدا كما قال بعض السلف: ما رأيت يقينا لاشك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه من الموت، وعلى هذا حمل بعض علماء المعاني، «ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» «المؤمنون ١٥، ١٦» فأكد الموت باللام، وأتى فيه باسم الفاعل الدال على الثبوت، وأتى في البعث بالفعل ولم يؤكد.

وهكذا نجد أن ابن القيم يلتزم لخروج [إذا، وإن] عن معانيها التي اشتهرت فيها عللا لطيفة، وأسبابا بلاغية، يقبلها العقل، وبالغها الاستعمال، ويتذوقها القطن اللبيب.

وما علل به الآيتين السابقتين «إن كنتم إياه تعبدون»، «إن كنتم بآياته مؤمنين» تعليلا مقبول، وتوجيه لطيف، إلا أن غريبه كان أوضح منه، وأكثر قبولاً لدى السامع.

يقول: (٥٤) «المخاطبون بلاشك يعيدون الله - إذ هم مؤمنون - وقد خاطبهم، وتاداهم ببناء الإيمان لكن الأسلوب القرآني اختار حرف [إن] دون [إذا]، وأدخلها على الأمر المتيقن، لأن المراد تنبيه الناس، وإثارة نفوسهم، لتبلغ الكمال في صفة العبادة على سبيل الحر للنفوس والتحريك لها حتى تبلغ الكمال في تلك الصفات، كما يقال لمن يزد إثارته: «إن كنت رجلا فافعل كذا».

واو الثانية :

ذهب قوم من أهل اللغة (٥٥) الى وجود واو تسمى «واو الثانية» ومن هؤلاء: ابن خالويه (٥٦)، والحريري (٥٧)، وغيرهما، وقالوا في توضيحها:

إن من خصائص كلام العرب إلحاق الواو في الثامن من العدد، فيقولون: واحد، ثان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية - فإذا بلغت الثانية لم تحرها بحرفي الأضواء التي لا يعطف بعضها على بعض، كما يقال في الحروف المقطعة: ألف، با، تا، ثا، وذلك إشعار بأن السبعة عندهم عدد كامل وتام، وأن ما بعده مستأنف.

وأستدلوا على ذلك بهذه الآيات القرآنية :

قوله تعالى : «التائبون، العابدون، الحامدون، السامعون، الراكعون، الساجدون، الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» «التوبة» ١١٢.

فالواو جاءت مع الوصف الثامن في الآية [والتاهون عن المنكر] بعد استيفاء الأوصاف السبعة.

قوله تعالى : «عسى ربه إن طلقن أن يبده أزواجا خيرا منكن، مسلمات، مؤمنات، قانتات، تاليات، عابدات، سائحات، ثيبات، وأبكارا» «التحریم» ١٥.

فقد جاءت الواو مع الوصف الثامن من الآية [وأبكار] بعد استيفاء الأوصاف السبعة.

قوله تعالى : «سيقولون ثلاثة رابعهم كليلهم، ويقولون خمسة سادسهم كليلهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كليلهم» «الكهف» ٢٢.

قالوا ودخلت في العدد الثامن.

قوله تعالى في أهل الجنة: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها» «الزمر» ٧٣ - فأنى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية.

وقال تعالى في أهل النار: «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها» «الزمر» ٧١ - بدون واو لما كانت أبواب النار سبعة.

وقد ذهب المحققون إلى أن هذه الواو ليست واو الثانية، وإنما جاءت لمعان سامية، وأغراض لطيفة، تتفق مع بلاغة القرآن، وهو إعجازه، بقول ابن القيم: (٥٨)

«هذه الأجوبة غير سديدة، وأحسن ما يقال فيها:

إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد، فتارة يتوسط بينها حرف العطف، لتغايرها في نفسها وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها، وتلازمها في نفسها، وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة يتوسط العاطف بين بعضها، ويحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين، فإن كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفرد، حسن إسقاط حرف العطف، وإن أريد الجمع بين الصفات، أو التنبيه على تغايرها، حسن إدخال حرف العطف.

ثم أخذ يوضح ذلك بضرب الأمثلة، ويمهد للرد على الشواهد السابقة واحدا واحدا، فقال:

فمثال الأول «الثائون، العابدون، الحامدون... الآية»، «مسلمات، مؤمنات، قانتات... الآية».

ومثال الثاني : قوله تعالى : « هو الأول ، والآخر والظاهر والباطن » الحديد ٣ .

وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى : « حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول » غافر ١-٣ .

فأتى بالواو الوصفين الأولين ، وحذفها في الوصفين الآخرين ، لأن غفران الذنب ، وقبول التوب ، قد يظهر أنهما بجرهان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما ، فمن غفر الذنب قبل التوب ، فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان ، وعلان متغايرتان ، ومفهومان مختلفان ، لكل فهما حكمه .

أحدهما يتعلق بالإساءة والإعراض - وهو المغفرة .

والثاني : يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه - وهو التوبة - ، فتقبل هذه الحسنة ، وتغفر تلك السيئة ، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر .

وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن ، ولهذا جاء العطف في قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » ، وترك في قوله : « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن » والحشر ٢٣ ، وقوله : « الخالق الباريء المصور » الحشر ٢٤ .

وأما « شديد العقاب ، ذى الطول » فترك العطف بينهما لنكتة بديعة ، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه ، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول ، وطوله لا ينافى شدة عقابه ، بل هما مجتمعان له ، بخلاف [الأول والآخر] ، فإن الأولية لا تتجمع الأخيرة . ولهذا فسرها النسي عليه السلام بقوله : أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، فأوليته أزليته ، وآخرته أبديته .

والذى حسن دخول الواو في [هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن] (٥٩) ، أن هذه الصفات متقابلة متضادة ، وقد عطف الثاني منهما على الأول للمقابلة التى بينهما ، والصفتان الأخريتان كالأوليين في المقابلة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر ، كنسبة الآخر إلى الأول ، فكما حسن العطف بين الأولين حسن بين الآخرين .

وبعد أن شرح هذه المقدمة أخذ يطبقها على الآيات التى استشهد بها الآخرون على

وجود واو الثانية، وردها شاهدا شاهدا، فقال في الشاهد الأول موضعا السبب في وجودها وعدمها: «فإذا عرفت هذا فالآية التي نحن فيها نتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه، لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها كان فيها تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتاج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة حسن العطف ليشير أن كل وصف منهما قائم على حدته، مطلوب تعيينه، لا يكتفى فيه بحصول الوصف الآخر، بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه، ونبيه عن المنكر بصريحه.

وأیضا حسن العطف هنا ما تقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدین، أحدهما: طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين، فحسن لذلك العطف.

وقال في الشاهد الثاني ملتصبا العلة في ذكر الواو وحذفها:

«الموضع الثاني قواه تعالى: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات، قانتات، تاليات، عابدات، سائعات، ثبات، وأبكارا».

فقبل : هذه واو الثانية غيبها بعد الوصف السابع.

وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين، لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثبوت، فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف، لأن المقصود أن يزوجهن بالنوعين الثبات والأبكار.

وقال في الآية الثالثة :

«الموضع الثالث، قوله تعالى: «سيقولون ثلاثة رابعهم كليلهم، ويقولون خمسة سادسهم كليلهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كليلهم».

قبل : المراد أدخل الواو هنا لأجل الثانية.

وهذا يحتمل أمرين، أحدهما هذا. والثاني أن يكون دخول الواو ههنا إلهانا بنها

كلامهم عند قولهم (سبعة)، ثم ابتداء قوله: [وثامنهم كلهم] وذلك يتضمن تقرير قولهم [سبعة]، كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوى.

وهذا اختيار السهيل، (٦٠) وهذا إنما يتم إذا كان قوله: [وثامنهم كلهم] ليس داخلا في المحكى بالقول - والظاهر خلافه - والله أعلم.

وقال في الآية الرابعة والأخيرة:

«الموضع الرابع قوله تعالى: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها».

فقد قالوا: أتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية، وقال في النار: «حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها» لما كانت سبعة.

وهذا غاية في البعد، ولإدلالة في اللفظ على الثانية، حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من حذف الجواب (٦١) لسكتة بديهة، وهى أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه - وأما الجنة، فلما كانت ذات الكرامة، وهى مأدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة هنا الدالة على أنهم جاؤوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تضخيما لشأنه، وتعظيما لقدره.

وهكذا نرى ابن القيم في حسه البلاغى، وفقهه للنص القرآنى بلغ الذروة، وبلغ الغاية، فقد عطل لوجود الواو في تلك الآيات السابقة تعليقات طريفة، يقبلها العقل، ويتذوقها الحس ويتبس بخلاوتها ذوو الأدواق الصافية، والبلاغة العالية.

وعلى ما يظهر فإن هذه الواو قد شغلت كثيرا من ذؤابة العلماء، وفقهاء اللغة، وأدلوأ بدلوهم فيها، ورأوا رأيهم في وجودها وعدمها من زمن بعيد، فجاء ابن القيم، وجمع من كل هؤلاء أطالب آثارهم، واختلاصة آثارهم.

فقد اجتمع أبو عل الفارسى مع أتى عبد الله الحسين بن خالويه في مجلس سيف

الدولة، فسئل ابن خالويه عن قوله تعالى: «حتى إذا جاءوها ففتح أبوابها» في النار بغير واو، وفي الجنة بالواو.

فقال ابن خالويه: هذه الواو تسمى واو الثانية، لأن العرب لاتعطف الثانية الا بالواو فنظر سيف الدولة إلى أفي على وقال: أحق هذا؟

فقال أبو علي: لا أقول كما قال إنما تركت الواو في النار، لأنها مغلقة، وكان يجبهم شرطاً في فتحها، فقوله [فتحت] فيه معنى الشرط، وأما قوله [وفتحت] في الجنة، فهذه واو الحال، كأنه قال: جاءوها وهي مفتحة الأبواب، أو هذه حالها.

ويعلق صاحب اليرهان على هذا بقوله: (٦١)

أحدهما: أن العادة مطردة شاهدة في إهانة المعذنين بالسجون، من إغلاقها حتى يردوا عليها، وإكرام المتعمين بإعداد فتح الأبواب لهم مبادرة واهتماماً.

الثاني: التطير في قوله تعالى: «جنات عدن مفتحة لهم الأبواب» ص ٥٠.

وهذا التعليل هو الذي تقبله الأفهام، وتطمئن إليه النفوس، ويرشد إليه سياق القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن تسعة أوصاف متتابعة لم يدخل بينها حرف العطف، حتى ولا بعد الوصف السابع، وهو قوله تعالى: «ولاتقطع كل حلاف مهين همام مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زينم» ن ٦٠-١٣، وهذا مما يدل على ضعف القول بما يسمى «واو الثانية».

المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الإنشقاق في علوم القرآن للسيوطي، ط الحلبي، القاهرة سنة ١٩٧٢م.
- ٣- ابن قيم الجوزية - حياته وآثاره، بكر بن عبد الله أبو زيد، ط وزارة الأعلام، السعودية، سنة ١٤٠٠هـ.

- ٤- ابن قيم الجوزية - جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر سليمان حمودة، ط دار الجامعات المصرية، اسكندرية، سنة ١٣٩٦هـ.
- ٥- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، سنة ١٣٧٧هـ.
- ٦- بدائع الفوائد، لابن القيم، بيروت، بدون تاريخ.
- ٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفرروز اهادي، تحقيق محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ.
- ٨- البيان في أقسام القرآن، لابن القيم، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، سنة ١٣٨٨هـ.
- ٩- التفسير القيم، لابن القيم، جمع محمد أوس الندوي، القاهرة، سنة ١٣٦٨هـ، ط جماعة أنصار السنة المحمدية.
- ١٠- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زهدان، القاهرة، سنة ١٣٣٢هـ.
- ١١- الجنى الدانى في حروف المعاني، للمرادى، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، سنة ١٣٩٣هـ.
- ١٢- الخصائص، لابن جنى، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٣- الخطط التوفيقية، زكى مبارك، القاهرة.
- ١٤- دائرة المعارف الاسلامية، نقلها الى العربية عبد الحميد بونس وآخرون، القاهرة، سنة ١٩٣٣م.
- ١٥- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الحالى عظيمه، القاهرة، سنة ١٩٧٢م.
- ١٦- درة التنزيل وغرة التأويل، للإسكالى، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ.
- ١٧- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
- ١٨- روح المعاني، للألويسى، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٩- زاد المعاد، لابن القيم، القاهرة، دار الفكر، سنة ١٣٩٢هـ.

- ٢٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للعماد الحنبلي، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢١- الكشاف، للزمخشري، القاهرة، ط الخلي، سنة ١٩٧٢م.
- ٢٢- الكتاب، لسبويه، القاهرة، المطابع الأميرية.
- ٢٣- المقتضب، للمبرد، تحقيق الشيخ محمد عزيمة، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة سنة ١٩٦٣م.
- ٢٤- معاني الحروف، للزماني، تحقيق د. عبد الفتاح شلي، القاهرة، سنة ١٩٧٣م.
- ٢٥- مختار الصحاح، للرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٦م.
- ٢٦- وفيات الأعيان، لابن خلكان، القاهرة.